أزال معتزاً بهـا ـ . ولكني لا أكتم القارىء أنني كنت أقرأ هـذا المذهب في نجوة من الناس ، خوفاً من تعليقاتهم وتفسيراتهم التي كنت في غنى عن سماعها والدخول في مناقشات معهم بسببها .

ولقـد بذلت جهوداً فكرية شاقة ، بصدد استيعاب قوانين الجدلية ، كما يجب استيعابها ، ولقد كنت أكبر خلال ذلك ، أولئك الذين يعتنقون هذا المذهب ويدافعون عنه ، وأكثرهم شباب لا يزيدون على ما أنا فيه من المستوى الفكري والثقـافي ، إذ كنت أظن أنهم لم يعتنقوا مذهبهم هـذا ، إلا وقـد هضموا أساسه الفلسفي هضماً تامـاً ، وفهموه فهماً دقيقاً !. ولم أعلم ، الا فيما بعد ، أن أكثرهم ، إنما هضم المذهب في نفسه فقط عن طريق الاعجاب والانبهار ، ولم يدخل شـيء منه في عقله عن طريق الفهم والاقتناع ! ..

لقد كانت ثمرة قراءتي الدقيقة لجذور هـذا المذهب ، أنني لم أعد منه إلا بخفي حنين !.. لقد دخلت في قراءته ، وأنا أحمـل معي جعبة العقل والمنطق ، فارغة مهيأة ، ليس فيهـا أي أخلاط من شأنها أن تعيقني عن القناعة والفهم ، فعدت بهـا فارغة كما كانت اللهم إلا من أحكام جزئية يؤيدها المنطق ، ولكن لا يترتب عليهـا أي شـيء ذو بال .

عدت ، لأجـد يقيني بالله وصفاته ، أتم رسوخاً ، وأقوى ثبـاتاً ، في تربة المنطق الموضوعي الصافي الذي يستعلي على كل عصبية أو تقليد .

★ ★ ★

إنني أقرر أن معظم المثقفين من الناس ، سمعوا بضخامة الأساس الفلسفي الفكري لهـذا المذهب ، دون أن يقرأوا منه شيئاً ذا بال . رأوا بأعينهم قبة عظيمة تنهض عليها أحكام اجتماعية ونظريات اقتصادية ، دون أن يدخلوا الى هـذه القبة فينظروا الى ما فيهـا ، وربما دون أن يلمسوا حتى جـدران هذه القبـة ليعلموا شيئاً من حقيقتها .

بل إنني أقول : إن كثيراً من المعتنقين لهـذا المذهب والداعين اليـه ، لم يقبلوا من قراءة أساسه الفلسفي هذا إلاّ على عناوين حفظوا بعض مضموناتها السطحية ، وراحوا يقارعون بهـا أفكار الناس ، ويهيمنون بها على نفوسهم . ولماذا يفعلون ذلك ؟ وفي سبيل أي منفعة أو غـاية ؟

نترك علم ذلك لمن يريد أن يلاحقه ويبحث عنه . فليس هذا محور ما نتحدث فيـه الآن .

ونحن الذين آلينا على أنفسنا ، أن ننقاد للحق الذي يتبين لنا بمنظار المنطق السليم عن الشوائب ، أياً كان ، لا تصدنا عنه رهبة ولا تأسرنا له رغبة ، ما الذي يجب علينا فعله والحـالة هـذه ؟

إنه واجب واحد ، لا خيار لنا فيه ، هو أن نضع كل ما نُدعى اليه ، تحت مجهر الدرس والبحث العلمي ، ثم نحكم له أو عليـه ، على ضوء النتيجة التي يوصلنا اليهـا هذا البحث .

إننا بهـذا نتقي غائلة المهوّلين والخادعين ، اذا تبين لنا أن الأمـر تهويل وخـداع ؛ ونضع أنفسنا موضع الشكر لهم والاتباع لدعوتهم ، إذا تبين لنـا أن الأمـر حقيقة ثابتة .

وانني لأشعر بهـذا الواجب ، منـذ حين طويل . كما أدعو اليه أصحابي وكل الذين ألتقي بهم على مقاعد الدرس أو في المحاضرات والدروس المفتوحة العـامة ، في كل مناسبة .

ولكن شعوري بهذا الواجب ازداد ، بل ربما تضاعف ، في المدة الأخيرة ، عندما رأيت أن هنـاك من يلعب للمغامرة بعقول الناس وأفكارهم ، بورقـة واحـدة ، هي الجدلية ، هذه الكلمة السحرية التي لا يفتأ يكررها ، ليجعل منها البرهان القاطع على صحـة كل دعوى يريد اقامتها ، وعلى ابطال كل ركـن يريد ابطـاله . كأن الناس جميعاً ، قد انتهوا من دراساتهم العلمية للأشياء الى

أن الجدلية ميزان علمي ضروري لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فحق لمن شاء أن يجادلهم على أساسه وأن يحاكمهم الى سلطانه !..

فأنهضني هذا الشعور ، لهذا السبب ، الى كتابة هذا البحث عن القيمة العلمية الموضوعية للمادية الجدلية ، مستعملا ـ والله يعلم ويشهد ـ الموازين نفسها التي استعملتها ذات يوم للبحث في القيمة العلمية الموضوعية لليقين بوجود الله وخالقيته للكون .. وما يتبع ذلك . فلئن أوصلنا هذا الميزان الى أن المادية الجدلية حقيقة علمية ثابتة ، فلا مناص لنا عندئذ من أن نستبدل يقيناً جديداً بيقين قديم . أما إن أوصلنا هذا الميزان الى أن المادية الجدلية ، بشكل كلي أو جزئي ، ليست حقيقة علمية ثابتة ، فلا مناص لنا من التمسك بالحق أينما كان .

وإنك لترى أنني أسميت هذا الكتاب « نقض أوهام المادية الجدلية » . فلتعلم أن اضافة الأوهام الى المادية هنا ، إضافة حقيقية على بابها ، وليست اضافة بيان مجازية . أي ان المطلوب في هذا الكتاب نقض ما قد يكون وهماً من مقولات المادية الجدلية وقوانينها ، فأما ما هو حقيقة ثابتة وليس بوهم باطل ، فمن الخيانة بمكان أن نشتغل بالأحابيل التي تستهدف نقضه ، بل يجب دعمه واليقين به .

وهكذا ، فأنا لم أقرر ، بادىء ذي بدىء ، أنني أمام مجموعة أوهام ، وأنّ علي أن أبادر الى نسفها . بل القرار الذي كتبت هذا البحث على أساسه ، هو أننا أمام دعوى علمية فلسفية تستهدف وضع تفسير لقصة هذا الكون بما فيه تاريخ الانسان ، فما هي حقيقة هذه الدعوى ؟

وكما أن عليّ ألاّ أذهب فريسة الانبهار بهذه الدعوى وضخامتها ، كذلك ما ينبغي أن تذهب هي فريسة حكم عشوائي جائر منا ، وقرار سريع سابق على النظر العلمي المجرد .

إذن ، علينا أن نشمر عن ساعد الجد ، ونبحث في تجرد وموضوعية متحررة صافية .

وهذا هو القرار الذي قادني الى كتابة هذا البحث ، الذي أضعه بين يدي الإخوة القراء على اختلاف ميولهم ومشاربهم .

★ ★ ★

ترى من هم الذين ، يعرضون عن مثل هـذا القرار ، ويأبون إلا اعتناق ما سبق لهم أن اعتنقوه ، وإن كان ذلك قد تم بعيداً عن حكم العقل وسلطانه ؟

إنهم طائفتان من الناس :

الطائفة الأولى ، تتمثل في أولئك الذين دأبوا على التذرع بالقيم والأفكار والمذاهب ، للوصول الى منافعهم وأغراضهم وآمالهم .. وما أكثرها ، وأكثرهم .

الطائفة الثانية ، تتمثل في أولئك الشباب الذين يثقادون من مكامن الشهوات في نفوسهم ، بعـد أن تستثار فيهم تلك الشهوات باشـعال نيرانها المهيجة التي تغشي على صفاء العقل والتدبر الفكري .

فأما الطائفة الأولى ، فليس في شـيء من بحوث هذا الكتاب ما يجديهم ، ويدفعهم الى تغيير أفكارهم وواقعهم . فليس حـديثي موجهاً اليهم بحـال من الأحـوال .

وأما الطائفة الثانية : فإنني أدعو أفكارهم فقط الى أن تتحسس الحقـائق ثم تذعن لهـا ، سـواء عليهم أأخضعوا سلوكهم لإذعاناتهم الفكرية ، أم لم يخضعوه . إن كلاً منا قد يكون مضطراً ، لأسباب شتى ، الى الاندفاع في سلوك لا يؤمن بسلامته ، فلا يكون هـذا الاضطرار ، بطبيعة الحـال ، موجباً لتغيير الحقيقة الثابتة في ذهنه .

خير لهؤلاء الشباب ، أن يحتفظوا بحرياتهم العقلية والفكرية ، على أقـل تقدير إن لم يجدوا أنفسهم ، قادرين على التنسيق بين أعمالهم وأحكامهم العقلية ، في هـذا الوقت .

بعث المفهوم عن هذه الكلمة : « الديالكتيك » بعثاً جـديداً ، وبذل قدراً كبيراً من الجهد ، في سبيل تجليته والدفاع عنه . وجمع ــ في نطاق تحليله والاستدلال عليه كثيراً من منجزات العلوم الطبيعية والعلوم الانسانية وأفكار ما وراء الطبيعة.

وقبل أن ألخص لك المفهوم الفلسفي الذي اتخذ هيغل من « الديالكتيك » أدق تعبير عنه ، يجدر أنْ أضع بين يديك المحور ، أو اللباب ، الذي تطوف حوله فلسفته هذه. فلعل في ذلك عوناً على تبسيط تصوراته وأفكاره التي لا تخلو من التعقيد:

يتمثل لباب فلسفته كلها في أن وجود الشيء ، أيّ شيء ، على الصعيد الخارجي ، انما هو ثمرة الابداع الفكريّ له . فالفكر يبدع الشيء صورةً ومثالا ، ثم يدفعه الى الصعيد الخارجي حقيقة مطابقة لذلك المثال . ونقول على وجه التقريب : كما أن الوجود الأصلي للشجرة كامن في نواتها ، والوجود الأصلي للبناء كامن في خارطته ، والوجود الأصلي للأنغام التي تنبعث من العزف على الآلات المشاهدة كامن في مدوّنة اللحن : « النوتة » ــ كذلك الوجود الأصلي لأي شيء من الموجودات التي نراها من حولنا ، كامن في جذورها التي أشرقت قبل كل شيء مثالا وتصوراً في ساحة الفكر .

وهو في تعبيره عن الفكر ، لا يقصد فكراً جزئياً يتمثل في فكري أو فكرك أو أفكار الآخرين . وإنما يقصد الفكر بمعناه الكلي .. أي الحقيقة الكلية لمعنى كلمة « الفكر » فتشمل عندئذ التدبير الإلهي ، على نحو تندرج فيه شتى مظاهر الفكر الجزئية المتفرعة عنه . فهو يريد بالفكر الكلي أو ما يعبر عنه بالوجود المطلق ، ما كان يعبر عنه بعض قدامى الفلاسفة بالعقل الأكبر .

إذن فالفكر الكلي هو مظهر تجلّي الموجودات في مرحلتها المثالية الأولى ، ثم تتجسد في وجودها الخارجي صورةً مطابقة للأصل في مرحلتها الثانية . وهذه الموجودات في مرحلتها الفكرية الأولى تكون متشابكة متآلفة بحيث لا وجود لمعنى التشاكس والتناقض فيما بينها . حتى إذا برزت الى ساحة الوجود الخارجي ظهرت حواجز التناقض والتضاد بين كثير منها .

ثم إن الفكر لا تنقطع علاقته بها ، عندما تتحول ، منفصلةً عنه ، إلى عالم المحسوسات الخارجية . بل يظل الفكر يأخذها ويردّها في منهاج تطويري لانهاية له .. يأخذها إليه مشروعاً للتحسين والتطوير . ويردّها الى الوجود الخارجي تجربة نافذة . ثم لا يلبث أن يأخذها إليه ثانية ليضيف اليهـا تطويراً جديداً ، نعيدها الى ساحة الوجود الخارجي في طور أكمل .. وهكذا دواليك .

ولا يخفى عليك أن المقصود بالأخذ والردّ هنا ، إنمـا يتمثل في تسلّط الفكر على الموجودات الخارجية ابتغاء تطويرها من حال الى حال .

وهنا يعمد هيغل الى « الديالكتيك » = الجدلية ، ليصور لنا منه السبيل الوحيد الواصل مابين الفكر والموجودات الخارجية ، بل ما بين الفكر ونوازع الروح والوجدان أيضاً . فعلى هذه السبيل المعبدة وحدها تتواصل حركة الأخذ والردّ من الفكر الداخلي الى الموجودات الخارجية أو إلى عالم الروح والوجدان، وبالعكس .

هذا هو اللباب المتحصل من فلسفة هيغل .

والآن نحاول أن نلخص البسط الفلسفي لأفكاره التي تطوف حول هذا اللباب في النقاط التالية :

١ً ـ ان بين الفكر والوجود المطلق وحـدة حقيقية تتسامى على كـل ما قد يبدو من مظاهر التغاير بينهما . ذلك لأن الوجود المطلق (وهو الوجود العاري عن قيود التشخصات الجزئية) لا يتجلّى إلا في الفكـر ، فهو بذلك : « مساو لنفسه فحسب ، كما أنه ليس غير مساو لشيء آخر .. إن تعييناً ما أو مضموناً يدخلان عليه فوارق أو يضعانه مختلفاً عن شـيء آخر ، لن يحافظا عليه في نقـائه الأصلي » [1] فهو الوجود الكبير الذي تختفي فيه التناقضات لاختفاء حواجز السلب والايجاب منه ، ولاتحـاد الموضوع والمحمول فيه ، انه البوتقة العامة التي يتحد فيه كل شـيء مع غيره .

---

(١) هيجـل لفرانسوا شاتلييه ص ٧٤ . والنص الـذي بـين قوسين لهيجل مـن كتـابه عـلم المنطـق ١/٧١ .

وواضح أن حقيقة هذا شأنها لا تعيش إلا في الفكر ، فهو روح هذا النوع من الوجـود والباعث لتجليه .

ولما كانت هـذه الحقيقة : « الوجود المطلق » هي سـرّ ظهور الموجودات المختلفة فيما بعـد ، وباعث تجلياتها في ميزان الحس والشعور ، كان لا بد من كون الفكر شريكاً له ، أي للوجود المطلق ، في هذا السر .

إذاً ، فإن كلاً من الفكر والوجود المطلق ــ وقد قلنا إن بينهما وحـدة حقيقية بنظر هيجل ــ يحققان في الأشياء تجلياتها وظهورها في عـالم الوجود الحسي . فبدون الفكر لا يتحقق وجود مطلق ، وبدون الوجود المطلق لا يتحقق الوجود الخارجي . ذلـك لأن الوجود الخارجي إنما يتم نسيجه على منوال منطلقه الأول الذي يتم في الفكر .

٢ً ــ ولكن كيف يتم ظهور ، أو صنع ، الحقيقة الموجودة وجوداً خارجياً ، في بوتقة الوجود المطلـق ؟..

يتم ذلك حسب ما تقـرره فلسفة هيجل ، من خـلال اللحظات الدقيقة والسريعة التي يتنقل فيها الشيء ، بين الوجود المطلق والعدم المطلق . والعـدم المطلق ــ شـأنه كشأن مقابله : الوجود المطلق ــ مستقره في الفكر وحـده . إذ هو كما يقـول : « خواء .. ولا تعيين" وانعدام مطلق للمضمون .. ان الفرق بينه وبين الوجود المطلق ليس أكثر من الفرق بين : الفكر في شـيء ، والفكـر في لا شـيء » [1] وهـذا التنقل الذي نتحدث عنه هو ما يسمى بالصيرورة . وإذاً فان حقيقة الشيء الموجود إنما تبرز الى ساحة التشخص ، خارجة من عـالم الفكر : ــ الوجود المطلق ــ عن طريق تلاحق الذرات الصغيرة للمادة أو الشيء ، هاربة من العـدم ، لاجئة الى الوجود ، وهو تلاحق مستمر . يقول هيجل :

« الحقيقة ليست لا الوجود ولا العـدم . بل هي كون الوجود قد انتقل الى العـدم ، والعدم انتقل الى الوجود » [2] .

(١) من كتـاب عـلم المنطق لهيجل القسم الأول ص ٧٢ .

(٢) المرجع السابق . وليلاحظ القارىء انني انما احرص على وضع صورة دقيقة وامينة لتصورات هيجل . ولست بصدد تقويمهـا لا بتصويب ولا تخطيء .

٣ ــ يترتب على ما سبق ، أن جميع الوقائع والموجودات الحسية المتناثرة حولنا ، بكل ما قد يكتشفه الانسان فيها من التحليلات والقوانين الطبيعية ــ ليس في حقيقته أكثر من ظواهر سطحية متناثرة ، وقد تبدو متناقضة ؛ لها من ورائها جذور كلية عامة ، هي في الحقيقة روحها وباعثها والجامع المؤلف بين أشتاتها ؛ وهي كامنة حيث يكمن الوجود المطلق أي في أعماق الفكر .

وإذاً فلا يوجد كبير قيمة لما يجريه العالم في مخبره من أدلة تجريبية ، يصل بها الى تحليل ظواهر الوجود ضمن نطاقها السطحي الذي لا تتعداه .

ان الفيلسوف الذي تتمثل مهمته في سبر أغوار الأشياء لربط الظواهر بجذورها ، يجب عليه أن يعلم بأن شهادة الوقائع ــ كما تفهم عادة ــ غير موثوق بها ، وأن عالَم التجربة مرفوض ، هو وتعاليمه لتوهّما . ذلك لأن التجربة العلمية على وجه التحديد ليست أكثر من المادة التي تثقفات منها الآراء المتناقضة والمصدر الذي تتغذى منه تلك الحوارات الكاذبة ، التي لا ينفك كل واحد يكرر فيها التأكيد على ما يعتقد [١] .

ويقرر هيجل ، مشدداً على هذه النقطة ، « أن الحس العام اذا كانت تمزقه التناقضات ، فذلك لأنه يعكس شتات الظاهرات وغموضها وبلبالها الأساسي . فلا بدّ إذاً من فرض وجود عالم آخر غير هذا العالم ــ يقصد عالم المحسوسات والموجودات المشخصة ــ ألا وهو ما وراء العالم .. موضوع القول الكلي ، يتعرف اليه الانسان تجريبياً عندما يتخلص من أهوائه . غير أن ما يجعل وجود ذاك العالم ضرورياً ، هو سعي ومطلب لا تجربة وتطبيق . ففي وراء هذا الواقع الذي يتبدى بسهولة مفرطة ، لا بدّ من وجود واقع ثابت منتظم ، الوصول اليه عسير ، وكثافة وجوده تمنح القول الفلسفي قوامه . وان لم يكن الأمر كذلك ؛ فلا يبقى سوى الاستسلام للظلم والعنف » [٢] .

---

(١) هيجل لفرانسوا شاتلييه ص ٥٤ .

(٢) المرجع السابق ص ٥٥ .

ويرى هيجل أن قرار الفلسفة ومطلبه العظيم، انما يتمثلان في اختراق حدود هذه التجارب والموجودات الخارجية ، التي لا يكاد يصل الباحث فيها ــ بالطريقة المعتادة ــ الى شيء غير صور المشاكسات ومظاهر المتناقضات ، وما يبدو من سعي بعضها الى تحطيم بعض في طريق من العنف والآلام • فاذا ما تمت العودة بها الى جذورها الأولى ، أي الى ساحة الوجود المطلق في الفكر ، ظهر عندئذ تآلف ما كان مختلفاً واتحاد ما كان متناقضاً ، فزالت بذلك الأنانيات وقضي على العنف •

ونظراً الى أن أكثر الناس لم يلتفتوا الى هذه الحقيقة ، وحسبوا العلم مشعلاً لا يصلح أن يهديهم إلاّ الى آخر ما تقف عنده حدود الوقائع والتجارب والمشخصات ، فقد جعلوا الوصول الى تلك النقطة قصارى غاياتهم وأعلى مطلب لهم • ولما وصلوا اليها ، لم يحاولوا أن يتقدموا خطوة واحدة بعدها ، حيث ظنوا أن ذلك هو آخر ما يمكن للعلم الوصول اليه •

فكان من آثار هذا التصور الخاطىء أن اعتقد فريق أن هذه الوقائع والموجودات بما تحتوي عليه من قوانينها الطبيعية هي كل شيء •• ومن العبث البحث عن أشياء أخرى وراءها ، ومن هنا ثار هؤلاء على الدين ومعتقداته ورجاله •• بينما ذهب فريق آخر الى أن ثمة أسراراً تكمن خلف تثار هذه الوقائع وأحكامها الطبيعية ، ولكنهم لم يملكوا ، أو لم يبحثوا ، عن سبيل منطقي يوصلهم اليها • فتخيلوها وهماً ، واعتقدوا بها غيباً وأطلقوا عليها اسم : « ما وراء الطبيعة » فكان من آثار ذلك ما انتهت اليه الفلسفة « الريبية » من شكوك واضطرابات ، وما انتهت اليه الفلسفة « الكنطية » من أخيلة وأوهام

إلاّ أنه قد آن للفلسفة أن تضع قرارها موضع التنفيذ ، وأن تتدخل لحلّ هذه المعضلة وانهاء سبيل العنف •• يقرر هيجل ذلك بأسلوب يتجلى فيه قدر كبير من الاعتداد ، والتنويه بالعرق الألماني الذي يخصه بكثير من المزايا التي لا يراها في غيره ••

وقد تيسر السبيل أمام الفلسفة لقيامها بهـذا الدور العظيم في نظر هيجل ، بعـد أن أخرج للناس منطقه الفريد الذي أصبح معـداً لاستيعاب كل مفاهيم الفكر وحقائق الكون ومتطلبات الروح ، دونما حـاجة الى التخبط في متاهات الميتافيزقيا وظلام الريبة والشكوك :

« إن المنطق الموضوعي يحلّ محلّ الميتافيزقيا القديمة التي كانت تأليفـاً علميـاً عن العالم ، قوامه الأفكار وحـدها .. والمنطق الموضوعي يشمل أيضاً الأقسام الأخرى من وراء الطبيعة ، بمقدار ما كانت هـذه تحاول بالاستناد الى صيغ الفكر الخالصة ، إدراك موضوعات خاصة تستمدها من التصور ، مثـل النفس ، والعالَم والله ، وبمقدار ما كان الأساس في طريقة اعتبارها الأشياء يقوم على تحديدات الفكر ذاته . فالمنطق (يقصد هيجل بالمنطق منطقه هو) يدرس هـذه الصيغ والتحديدات ، دون الرجوع الى التصور في موضوعاته وبواقيه ، ويفحص طبيعة تلك الصيغ والتحديدات وقيمتها ، من أجـل ذاتهـا ، (أي في واقعها الموضوعي) ، وفي ذاتهـا (أي ضمن نظام الشعور) . وقد كان عـلم ما وراء الطبيعة المتغاضي عن هـذا الفحص ، يجلب على نفسه هذا اللوم بحق ، لاستخدامه تلك الصيغ دون نقـد ، ودون البحث سلفاً فيما اذا كان يمكنها أن تكوّن تحديدات للشيء « في ذاته » فقط ، أو تحديدات للعقل فحسب ..»[1] .

إذاً ففلسفة هيجل لا تنبذ عالم ما وراء الطبيعة والروح ، ولكنها تفتح سبيلاً منطقياً اليه ، لقد غدت ساحة ما وراء الطبيعة إذاً داخلة بفضل هـذا المنطق ضمن حـدود العلم ، وتلك هي غاية فلسفة هيجل .

٤ً ــ ولكن ما هـو أبرز ما يمتاز به هـذا المنطق ؟ وما هي الأداة التي يستعملها منطق هيجل لاقتحام ظلمات النفس وأغوارها ، ولمدّ رواق العـلم إلى ساحة المجهول .. ساحة ما كان يسمى بما وراء الطبيعة ؟..

---

(١) علم المنطق لهيجل ترجمة انطوان برمان وانظر : هيجل لفرانسوا شاتلييه ص ٤٩ .